ولما اضطرمت الحرب الأهلية الأسبانية ظهرت إيطاليا الفاشستية من وراء الثوار تشد أزرهم وتذكى أوار الحرب بجنودها وسلاحها ، وما زالت تمضي في سياستها حتى اليوم تنفيذاً لمآرب ومشاريع استعمارية تبغي اجتناءها . ولما نظمت اليابان اعتداءها الأخير على الصين بادرت إيطاليا بإظهار عطفها وتأييدها لليابان المعتدية لأنها تسير في نفس السياسة الاستعمارية التي تسير عليها

هذا هو ماضي إيطاليا ، وهذا هو حاضر الفاشستية الايطالية في نقض العهود والمواثيق وتمزيق المجتمعات ، وفي ترقب الفرص غير المشروعة وتنظيم الاعتداءات الاستعمارية

والواقع أن الفاشستية الإيطالية لا تنكر جنوحها إلى هذه الخطط ، فهي تنادي علناً بأن الحق للقوة وحدها ، وتسخر من كل عهد أو ميثاق أو حق لا تؤيده القوة ، وهي تجرى على سياسة مكيافيلية خالصة تبرر لتحقيق الغاية كل الوسائل

فكيف تستطيع مصر بعد ذلك كله أن تثق بتأكيدات رومة الودية وتطمئن إليها ؟ إن التاريخ يعيد نفسه دائماً ، ومصر ترجو ألا تكون ميداناً للوثبة القادمة

ومصر لا يمكن أن تطمئن إلا لنفسها ومقدرتها على الدفاع عن كيانها ، وهي تشعر شعوراً صادقاً بالخطر الذي يلوح لها في الأفق ؛ ولكن مصر تثق أيضاً في مستقبلها وطالعها ، وتعتزم ألا تسمح لأحد بالاعتداء عليها . ومن حسن الطالع أنها تستطيع أن تعتمد في مثل هذا الظرف على معاونة صديقتها وحليفتها العظيمة بريطانيا العظمى . ومن حسن الطالع أن مصلحة مصر ومصلحة بريطانيا تتفقان هنا وتمتزجان ؛ فالاعتداء على مصر يكون في نفس الوقت اعتداء على ما تعتبره بريطانيا مركزاً حيوياً لمواصلاتها الإمبراطورية

على أن مصر يجب أن تعمل منذ الآن للاعتماد على نفسها قبل كل شيء ، فنحن في عصر القوة لا في عصر الحق ، ويجب أن تتذرع الأمم للذود عن حرياتها وكيانها بكل ما تدخر من القوى المادية والمعنوية ؛ وهذا ما ستفعله مصر بلا ريب

ثم إننا نؤمن من جهة أخرى بأن هذه النظم الطاغية والخطط الاستعمارية الباغية التي تصول اليوم في ميدان القوة والعدوان سوف تبهار متى وقع الاصطدام الحقيق ؛ هذا إذا لم تسارع قبل ذلك إلى تمزيق نفسها بنفسها

(* * *)

مسكين

بين إنجليزي ولبوته

أثر العادة والتدريب في الانسان والحيوان

كنت قد أبصرت في بعض الصحف صورة شبل مع إنجليزي وطلّته [١] أو لَبُوَته [٢] ... وهما يشربان الشاي (أو الشاهي كما يقولون في الحجاز) والثلاثة : الرجل والرِّجلة وابن الليث يتناظرون [٣] صامتين . وفي الصحيفة حديث عن أنس الوحش، فلم أتعجب إذ رأيت هذا المسكين (أعني الشبل) يقاعد إنجليزيا ، ولم أنكر ، ولم أقل : إن ذلك البريطاني قد تطبع بطبع الأسد الوحشي حتى ائتلفا واصطحبا لأن الانجليزي إنسان من الانانسية والناس لا يحتاجون كما يعرف العارفون إلى تدرب على طبيعة من طبائع الضواري والكواسر أو الجوارح [٤] ، فالقرابات كما حققت علوم كثيرة في هذا الزمان بين منتصبي القامات اليوم وبين [٥] الماشيات على أربع والطائرات والزحافات واشجات قريبات ؛ ووراثة الأجداد البعيدة (بل القريبة) وهي التي يقال لها في اللسان الأفرنجي L' atavisme ما زايلتهم في حين ، وما ضاع والحمد لله ... منها شيء ؛ وفي كل يوم ألوف ألوف من الأدلة المثبتة المسكتة ، المخجلة المخزية . وأبلد من شئت ممن تفخمهم تفخيماً وتبجلهم تبجيلاً وتحسبهم — وهم من البشر — ملائكة ، فإنه « يكاد أفضلهم رأياً يردّه عن فضل رأيه الرضا والسخط ، ويكاد أصلبهم عوداً تنكأه اللحظة ،

---

(١) طلة الرجل : امرأته ، قال :

وإني لمحتاج إلى موت طلتي ولكن قرين السوء باق معمر

(٢) اللبوة ساكنة الباء غير مهموزة : لغة في اللبؤة بضم الباء وبالهمزة

(٣) يتناظرون : ينظر بعضهم بعضاً لا إنهم كانوا يتناظرون ويتباحثون في كتابي (أصل الأنواع) لداروين و (تاريخ الخلق الطبيعي) لأرنست هيكل

(٤) (الضاري) من السباع ماضري بالصيد ولهج بالفرائس (باز كاسر) وعقاب كاسر ، كسر الطائر ضم جناحه حتى ينقض يريد الوقوع (الجوارح) ذوات الصيد من السباع والطير

(٥) بين تكرر مع المظهر لا كما قال الحريري في (الدرة) وغيره والتكرير في أقوال العرب كثير

وتستحيله الكلمة الواحدة [١] »

« والناس شجرة بَغْي [٢] »

« وجدت الناس إن فارضتهم فارضوك ، وإن تركتهم لم يتركوك ، وإن هربت منهم أدركوك [٣] »

« وجدت الناس أخبرُ تَقْلِهُ [٤] » :

يلقاك بالماء النمير الفتى وفي ضمير النفس نار تَقِدْ [٥]
يعطيك لفظاً ليّناً مسُّه ومثل حدّ السيف ما يعتقدْ

فالناس هم الناس ، و« هم — كما قال عالم أفرنجي — لم يزالوا حتى اليوم في الأفق (الدور) القردى الشبنزى أو الشنبنزي » إنهم بعدُ لفي هذا الأفق وإن مشوا في الأرض متغطرسين متكابرين متبجحين على إخوانهم الأقربين (ذوات الأذيال ...) بما سمّته لغاتهم تقدماً وارتقاء وإن أسمعك بعضهم — وأنت في القاهرة مقيماً — صوت الطبية في (نيويورك) وأراك صورة من نهوى في بلاد (النمسة) :

من في العراق يراك في طرسوسا [٦]

فالناس هم الناس :

فلا تلزمن النـاس غير طباعهم
فتتعب من طول العتاب ويتعبوا [٧]

أعود إلى أول كلامي فأقول : لا ، لا ، لم أقل : إن ذلك الانجليزي قد خلق بغريزة ضارٍ فألف كلٌّ صاحبَه ؛ فالانسان — كما أثبت علم العلماء وأثبت عمله هو — سبعي بالطبع ، بل ازددت بعد تلاوة ذلك الحديث إيقاناً بأثر العادة والتعويد ، وإيماناً بأن التدريب يقدر أن يذلل الضاري ويقتاده — كان الله في عونه — إلى ملابسة انجليزي (أو غير انجليزي) ولا شيء في الدنيا أصعب من مخالطة الناس

* * *

وفي العربية أقوال كثيرة في العادة والمرون والتضرية والتدريب والتألف . وهذا خبر حسن بارع مجزئ عن كثير في هذا المعنى ، وهو في الشرح الكبير (للنهج) لابن أبي الحديد :

« إن لم تكن حليماً فتحلم ، فانه قل من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم) صحيحٌ في مناهج الحكمة ؛ لأن من تشبه بقوم وتكلف التخلق بأخلاقهم ، والتأدب بآدابهم ، واستمر على ذلك ومرن عليه الزمان الطويل ، اكتسب رياضة قوية وملكة تامة وصار ذلك التكلف كالطبع له ، وانتقل عن الخلق الأول . ألا ترى أن الأعرابي الجلف الجافي إذا دخل المدن والقرى وخالط أهلها ، وطال مكثه فيهم انتقل عن خلق الأعراب الذي نشأ عليه وتلطف طبعه ، وصار شبيهاً بساكني المدن ، وكالأجنبي عن الوبر . وهذا قد وجدناه في حيوانات أخرى غير البشر كالبازي والصقر والفهد التي تراض حتى تذل وتأنس ، وتترك طبعها القديم ، بل قد شاهدناه في الأسد وهو أبعد الحيوان من الانس . وذكر ابن الصابي (أبو إسحق) أن عضد الدولة بن بويه كانت له أسود يصطاد بها الصيد فتمسكه عليه حتى يدركه فيذكيه [١] ، وهذا من العجائب الطريفة »

(يتبع)

(١) من كلام النهج . (تستحيله) يريد تتحيله ، ولم أجد استحال متعدياً في كلام عربي يوثق به ، ولا في كتب اللغة المعروفة

(٢) إنما جعلهم شجرة البغي إشارة إلى أنهم ينبتون وينمون عليه (الميداني) والقول مثل

(٣) أي إن تلك من أعراضهم نالوا من عرضك ، وإن تركتهم فلم تنل منهم نالوا منك أيضاً لسوء دخلتهم ، وخبث طباعهم (الميداني) فارضه : جازاه (التاج) يفارض الناس يلاحيهم ويواقعهم (الأساس) والقول لأبي الدرداء

(٤) أبو الدرداء . قلاه يقليه قلى وقلاء (بالفتح) ومقلية وقلية (كرضية) يقلاه : أبغضه ، والهاء للسكت ، والمعنى وجدت الناس أي علمتهم مفولا فيهم هذا القول أي ما منهم أحد إلا وهو مسخوط الفعل عند الخبرة (الفائق للزمخشري)

(٥) أبو العلاء

(٦) المتنبي . وصدر البيت : (كذب المخبر عنك ، دونك وصفه)

(٧) عمارة اليمني

(١) يذكيه : يذبحه ، والذكي المذبوح ، في (الكشاف) : إلا ما ذكيتم : إلا ما أدركتم ذكاته (ذبحه) وهو يضطرب اضطراب المذبوح وتشخب أوداجه

العدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة